كتاب

عالمية الإسلام

تاليف
دكتور شوقى ضيف

عالمية الإسلام

ألف هذا الكتاب الدكتور شوقى ضيف رئيس المجمع اللغوى

عالمية أن تكون الحرية الدينية، مكفولة فى الإسلام لجميع الناس فلا إكراه ولا قهر فى الدين لأحد، والتزم بذلك الرسول عليه السلام والتزم به، بعده، الخلفاء الراشدون، والتزم به المسلمون منذ فتوحهم على مر العصور.

والإسلام هو الدين الوحيد الذى عاش فى دياره كل أصحاب الملل إلهية ووثنية، مع صيانة معابدهم وأموالهم، وأن تكون لهم محاكم خاصة بهم كنسية وغير كنسية من رؤساء أديانهم... وكانوا جميعا يسمون أهل الذمة إشارة إلى أنهم **فى ذمة الإسلام وحمايته**

ويقول الدكتور شوقى ضيف إن من أهم مظاهر عالمية الإسلام أن فتح فى دياره لأهل الذمة جميع وجوه التعايش المادى من زراعة وصناعة وتجارة... وأثرى كثيرون منهم ثراء واسعا تمثله تلك المصرية القبطية التى استضافت المأمون وحاشيته وجنده حين مر بضيعتها فى زيارته لمصر... حتى أبواب الدواوين والأعمال الحكومية كانت لا توصد فى وجوههم منذ معاوية وابنه يزيد.

أما العباسيون فقد اتسع استخدامهم لأهل الذمة منذ القرن الثالث الهجرى وارتفع بعضهم إلى مرتبة الوزارة فى عهد الدولة البويهية فى العراق وإيران وفى عهد الدولتين: الطولونية والفاطمية بمصر

إن الجزية لم تكن ضريبة دينية ولكنها **ضريبة دفاع** أى بدل عسكرى نظير حماية الثغور... ومن عدالة الإسلام أنه لا يكلف غير مسلم بالدفاع عنه... ولهذا كان يعفى منها الشيوخ والنساء والأطفال... وهى بعد هذا كله لا تتجاوز دينارا فى العام.

لم يقتصر التعايش الجامع فى دولة الإسلام على الناحية المادية بل كان (المتكلمون) يفتحون أبواب مجالسهم للحوار العقلى فيها لغير المسلمين... **أى التعايش الفكرى**

إن الإسلام **هو الدين الوحيد الذى اعترف بالأديان السماوية** جميعا.

والإسلام **دين عقلانى** فلم يؤيده، مثل الديانات السماوية السابقة بمعجزات مادية حسية، بل طلب إلى المسلمين استخدام عقولهم فى تدبر آياته الكونية، وما أودعها من نظم وسنن دقيقة سديدة، ليشهدوا شهادة عقلية بصيرة بوحدانية الله.

والإسلام **دين العلم** والقرآن الكريم حافل بالإشارات إلى العلوم **الطبيعية والفلكية والطبية**.

والإسلام **دين العدل**. يقول للمسلمين (جعلناكم أمة وسطا) أى عدولا تتوسطون فى كل شىء فلا تفرطون ولا تقصرون حتى فى الصدقة وفى عبادة الله. إذ الإسلام ينكر الانقطاع والعزلة للنسك.

ذهب قوم فى رحلة ولما عادوا قالوا للرسول عليه السلام، عن أحدهم: كان خيرنا... كان يصوم النهار ويقوم الليل.

فقال الرسول عليه السلام: من كان منكم يقوم على طعامه وشرابه؟

فقالوا : كلنا...

فقال: كلكم خير منه إنما أنا أصوم وأفطر وأصلى وأقعد، إن الدين يسر فأوغلوا فيه برفق إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى.

الإسلام يحتم العدل بين الخصوم (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى).

دعا الإسلام إلى العدل الاجتماعى بين الأغنياء والفقراء فالزكاة فرض لا منّاً ولا منة ولا تفضلا بينما حاولت الشيوعية حل المشكلة عن طريق التسلط والقهر وحرمان الإنسان من حريته وماله مع الإلحاد والتمرد على الأديان فكان طبيعيا أن تسقط وتنهار.

الاسلام دين المساواة فالمؤمنون إخوة... والتفاضل عنده ذروة أخلاقية إنسانية (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)

مساواة بين **الأجناس والأعراق والألوان**

مساواة فى «الحدود» والعقوبات.

مساواة تشمل البشر (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[1]

الإسلام طلب من المسلمين أن يكونوا **رحماء مع «الإنسان»** بحيث يتصدقون على فقراء المشركين كما يتصدقون على فقراء المسلمين وليس ببعيد موقف عطر التاريخ عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، مع اليهودى الذى علت به السن ففرض له نصيبا فى بيت المال كنصيب المسلم باعتبار أنه طالما يعيش فى ديار الإسلام فله من الحقوق ما للمسلمين

الإسلام دين الشمل والأسرة واحترام الأمومة والأبوة ورعاية الأبناء والنظرة العالية إلى المرأة سكنا وعدلا للروح..

الزواج فى الإسلام مظلة حنان دستوره بين الأزواج مودة ورحمة **وسوى الإسلام بين الرجل والمرأة** فى المسئولية السياسية والاجتماعية وفى العمل إذا أرادت بل **كفل لها الإسلام استقلالا اقتصاديا لم تظفر به المرأة الغربية إلى اليوم**..

المرأة المسلمة تحتفظ باسمها واسم أبيها بعد زواجها ولا تتنازل عنهما وتنضوى فى اسم الزوج كما يحدث فى الغرب إلى اليوم.

---

(١) البقرة ٦٢

والمرأة المسلمة لها **مشاركة من قديم فى العلوم والآداب وفى الرأى والمناقشة** بل يسجل الدكتور شوقى ضيف للمرأة المسلمة **دورا فاعلا فى الحركة العلمية الإسلامية** ومتى؟ منذ عصر الصحابة، فالسيدة عائشة رضى الله عنها قال فيها الرسول (خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء (العرب يطلقون على صاحب البشرة البيضاء: أحمر). وقد روت السيدة عائشة عن الرسول عليه السلام أكثر من ألفى حديث تحمل أو يحمل الكثير منها أحكاما تشريعية اعتد بها فقهاء الأمة كما أخذوا عن بعض الصحابيات وقد استعان عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فى خلافته بصحابية من المهاجرات القرشيات **جعلها حاسبة فى سوق المدينة** هى الشفاء بنت عبدالله **تراقب الأسعار فى البيع والشراء وتفصل فى الخصومات.**

وكم حفلت حلقات المحدثين والفقهاء والمتكلمين فى القرن الثانى الهجرى بالنساء المسلمات واشتهرت فى كل قطر إسلامى محدثات يؤخذ عنهن الحديث النبوى.. ومن أوائلهن فى مصر **السيدة نفيسة** بنت الحسين ابن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب المتوفاة سنة ٢٠٨ هـ وكانت تتصدر مجلس العلم فى مسجدها وممن سمع عليها الإمام الشافعى وكان يفخر بأنه تلقى العلم على السيدة نفيسة.

وكم فى التاريخ الإسلامى من مفسرات وفقيهات ويخص «الفاسى» كتابه (العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين) أى مكة، **المحدثات** بالحرم المكى أو النازلات به اللائى أخذ عنهن كثيرون من أجلاء المحدثين، الحديث النبوى. وقد ذكر الحافظ الذهبى فى تاريخه ٨٨ ثمانية وثمانين اسما لنساء عالمات...

وقد يعجب القارىء كما يقول الدكتور شوقى ضيف، إذا عرف أن السيدة **سكينة بنت الحسين** كان لها فى القرن الأول الهجرى/ السابع الميلادى مجلس وقور بالمدينة كان يؤمه شعراء عصرها الأفذاذ وينشدونها أشعارهم وكثيرا ما كانت تحكم بينهم وتعلق على أشعارهم بالنقد وتجيزهم.

ومن المسلمات الأديبات السيدة **(ولادة)** بنت آخر الخلفاء الأمويين فى الأندلس وكانت شاعرة ويحضر منتداها الشاعر ابن زيدون وكوكبة من الشعراء والأدباء فى قرطبه.

وفى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى تألق فى دولة المرابطين منتدى السيدة **حواء** زوجة حاكم اشبيلية لمدة ٢٧ عاما... وكان منتداها بقصر الإمارة وكانت **تحاضر،**

فيه الشعراء والكتاب والفلاسفة، وتستمع إلى حوارهم، وتشارك فى نقد ما ينشد الشعراء من أشعارهم...

وفى غرناطة كان منتدى **حفصة الركونية** فى القرن الثانى عشر.. وهكذا **سبقت المسلمات، نساء فرنسا بقرون تلو قرون إلى إقامة المنتديات الأدبية والفكرية.**

فى ازدهار دولة الإسلام كانت **الزوجات جميعا متعلمات** كما أراد الإسلام وكان للزوجة مكانة رفيعة فى المجتمعات الإسلامية... وكثيرات منهن تفوقن فى العلوم الدينية واللغوية وعلوم الأوائل وكثيرات منهن كن أشبه بوزيرات لأزواجهن من الخلفاء والحكام مثل **أروى** زوجة أبى جعفر المنصور المؤسس الحقيقى للدولة العباسية... **والخيزران** زوجة ابنه المهدى كانت الآمرة الناهية وبمشورتها رد المهدى إلى أبناء الأمويين ما صادره العباسيون من أملاكهم... **وزبيدة** حفيدة أروى وزوجة هارون الرشيد.. لقد أمرت بحفر عين سميت عين زبيدة أمدت بمائها العذب مكة وسكانها ومن ينزل بها من الحجاج.

ومثل هؤلاء كثيرات فضليات كن دائما محل إعزاز من أزواجهم المسلمين شرقا وغربا... ولاشك أن ما رآه الغربيون فى إسبانيا وغيرها من منزلة رفيعة للمرأة المسلمة فى المجتمع الأندلسى هو الذى دفعهم رجالا ونساء إلى إعادة النظر فى وضع المرأة عندهم.

ومن العجب العجاب أن الأوربيين اليوم يفتعلون اتهام الإسلام بغبن المرأة المسلمة وهو الذى كرمها وأعزها... لقد سبق الإسلام إلى **مبايعة المرأة** (سورة الممتحنه) وهو **(حق)** لم تنله الأوربية إلا فى اواخر القرن التاسع عشر وفى بعض البلاد وليس سائر بلاد أوربا وإلى اليوم لا تتساوى الأوربية فى الأجر، مع الرجل فى محيط العمل الواحد.

وغير (أروى) و (الخيزران) و (زبيدة)، اشتهرت فى الدولة العباسية جارية لأم الخليفة المقتدر اسمها (ثمل) بأنها فقيهة وأنها جلست سنة ٣٠٦ هـ للحكم بين المتظلمين وسماع المظالم وجلس معها القضاة والعلماء واختلف الفقهاء حينئذ فى **جواز ولاية المرأة للقضاء**، وأجاز ذلك الإمام الطبرى أكبر علماء التفسير فى زمنه... كما أجاز لها القضاء الامام ابو حنيفة... مما يدل على ما بلغته المرأة المسلمة فى ذلك التاريخ من التعمق فى الفقه وعلوم الشريعة الإسلامية.

وفى الجزء الثامن من كتاب (الذيل والتكملة) لعبد الملك المراكشى ثَبْتٌ طويل **بالنساء العالمات** فى الأندلس والمغرب.. ومنهن من كانت تؤخذ عنهن القراءات السبع وقراءة ورش المصرى والتفسير والحديث النبوى والفقه والعربية واللغة والعروض وكتب الأدب المشهورة مثل كتاب (الكامل) للمبرد وكتاب (الأمالى) لأبى على القالى. وفى التاريخ الإسلامى **طبيبات ومتصوفات** ويسجل ابن عربى أن التى دفعته إلى التصوف زوجته مريم بما كان يشهد من ورعها. وتشتهر صوفية تونسية أخذت عن أبى الحسن الشاذلى صاحب الطريقة الصوفية المشهورة تسمى عائشة المنوبية وتلقب بلقب للاَّ ولها فى تونس زاوية كبيرة.. أما **المرأة السودانية** فقد كانت عاملا من عوامل انتشار الصوفية فى السودان وكانت تتقدم الرجال فى حلقة الإنشاد.

وحين اضطهد الغرب فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، العلماء وشنت الكنيسة حربا شعواء على (جاليليو) (١٥٦٤- ١٦٤٢ م) حين أعلن كروية الأرض وأنها تدور حول الشمس، وهنا قدمته إلى المحاكمة وعذبته ألوانا من العذاب لم ترحم شيخوخته، حتى اضطر مرغما إلى إعلان تراجعه عن آرائه. ولعل هذا كان وراء التباس الغرب فظن الأديان سواء فى الحملة ضد العلم والتحامل عليه والإسلام برىء بل المسيحية أيضا بريئة ولكنهم رجال الدين فى الغرب الذى يدين بالمسيحية السمحة التى تتنافى مع العنف ومما تنفيه نهضة المسلمين العلمية فهذه النهضة وراءها حث الإسلام الموصول على طلب العلم وإكبار أهله ولم تكن دعوته المتوهجة إلى العلم قاصرة على العلوم الدينية واللغوية كما قد يتبادر إلى الذهن بل دعا الى **علوم النفس وعلوم الكون الطبيعية والكيميائية والرياضيات والطب.**

ولم يقتصر طلب العلم فى دولة الإسلام على الخاصة بل كان متاحا لطبقات الشعب جميعا بفضل (**المسجد الإسلامى**) إذ كان مطروحا باستمرار فى حلقات الشيوخ بالمساجد وفيما نشأت بها من مكتبات ونشأ إلى جانب المكتبات دكاكين الوراقين... **ولم تتقاض هذه المنافذ العلمية مقابلا ماديا** ومن هنا كان العلم **متاحا للجميع دون مصاريف** وأكبر دلالة على هذا **نبوغ أبناء الطبقات الشعبية** مما حفلت بأسمائهم تراجم العلماء والأدباء... ويؤكد هذا ألقابهم التى لم يتنكروا لها مثل: (الحداد) و(البزاز) و (الخزاز) و (القواس) و(القواريرى) و (العطار) و (المطرز) ونشأ أبو نواس غلاما لعطار، ونشأ (أبو العتاهية) يبيع الخزف والجرار حاملا لهما على ظهره فى شوارع الكوفة... ونشأ الجاحظ يبيع الخبز والسمك بسيحان أحد نهيرات البصرة.

وفى (ألف ليلة وليلة) قصة طريفة لمزين ثرثار وفشار أيضا إذ قال لأحد وجهاء بغداد: لقد منّ الله عليك بمزين منجم عالم بصناعة الكيمياء والسيمياء والنحو والصرف واللغة وعلم المعانى والبيان، وعلم المنطق والحساب والهيئة (علم الفلك) والهندسة والفقه والحديث والتفسير).

ملأ الإسلام دياره علما ونورا مما يشهد به **التراث الإسلامى الذى يزخر بآلاف المجلدات فى شتى فروع المعرفة**.. وفتح الغرب عينيه فى ظلمات العصور الوسطى التى كان يعيش فيها على الضياء واللألاء فقبس واقتبس طويلا قبل أن تقوم له نهضة حين كانت الحضارة الإسلامية فى الأندلس ومصر فى قمة الازدهار والإبهار.

يتساءلون عن سر انتشار الإسلام... هل هو السيف؟ كلا فما عند الغرب والرومان أكثر وأخطر ولكن السر يكمن فى روح الاسلام التى احترمت الانسان من أى جنس ولون فأفاء الناس من كل لون وجنس إلى ظلها الرحيم.

السر، تركيز الإسلام على **المساواة** التى عاش الرسول يمكن لها فى العقول والقلوب حتى حين آذنت شمسه بالمغيب وإن كانت تطلع كل يوم من جديد ففى خطبة الوداع جاء صوته عميقا مسلما (أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم، وآدم من تراب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم.. وليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى)

وهكذا سوّى بين العرب والعجم من المسلمين ورد التفاضل بينهم.

وهكذا جعل الرسول بين المسلمين قانونا إسلاميا خالدا هو أن المسلمين جميعا عربا وغير عرب، وسودا وبيضا **متساوون** لا يتفاضلون إلا بالتقوى..

لم يسمع التاريخ عن منتصر سوى بين مواطنيه وبين سواهم فى الحقوق وكرامة الإنسان... لقد قاسى العالم القديم من الرومان ألوانا من الفظاظة والغطرسة وغلظة الجلف الذى لم يصقله فن أو حضارة أو قدوة دمثة...

وكم يقاسى الناس والأمم من الرومان الجدد

ولكن الإسلام ألغى نهائيا التفاضل القبلى والقومى والجنسى... ولا يحسب عليه بعض نماذج لم يرتفعوا إلى قمته أو إنسانيته أو حصافته أو عدالته فباءوا بغضب من الله..

لقد دخل الناس فى الإسلام أفواجا لا يستثنى من هذا أمم الحضارات العريقة، للمساواة والعدل وإلغاء الطبقية

دخلوا فيه أفواجا لليسر فى شعائره والإنسانية فى شرائعه **وإخوة المؤمنين** مهما اختلفت الديار والجنسيات..

إنه دين الأمة الواحدة

الإسلام (**الدين**) يلغى التعصب له أو للديانات ويحض المسلمين على التسامح مع من يخالفهم فى الدين حتى لو كان من الصابئة عبدة الكواكب أو من المشركين وهو تسامح يبلغ كما يقول الدكتور شوقى ضيف، بالحياة الإنسانية أقصى ما يريده الله لها من السمو..

لقد أفسح حاكم الأندلس الأموى محمد بن عبدالرحمن (٢٣٨– ٢٧٣ هـ) للإسبان المستعربين فى مناصب الدولة فعين تومس أنتنيان، كاتبا، له يدير شئون الدولة فاستعفاه من العمل يوم الأحد فأعفاه وأعفى جميع الموظفين حتى يستطيع المسيحيون منهم، الصلاة، فى هذا اليوم بكنائسهم... وأقبل كثير من الإسبان على اعتناق الإسلام لبساطته وسماحته، حتى من لم يعتنقوا الإسلام تعلموا العربية إلى حد اتقان الكتابة بها شعرا ونثرا. بل شمل التسامح الإسلامى فى الأندلس، اليهود ففتح لهم المسلمون أبواب الأندلس على مصاريعها كما يقول الدكتور شوقى ضيف فاتخذوها، طوال ثمانية قرون، ملجأ لهم وحصنا يحتمون به من اضطهاد الغرب لهم فى كل مكان، واستطاع أحدهم وهو حسداى بن شبروط أن يصبح وزيرا سنة ٣٣٤ هـ/ ٩١٦ م لعبد الرحمن الناصر أهم حكام الأندلس الأمويين، فبدأ حركة بعث الدراسات التلمودية، وسرعان ما أصبحت الأندلس – برضا المسلمين – مركزا للدراسات العبرية. ولما جلا العرب عن الأندلس بعد سقوط غرناطة ٨٩٧ هـ ١٤٩٢ م أخذ الإسبان يضطهدون اليهود اضطهادا شديدا وازداد الاضطهاد فى عهد فيليب الثالث ملك إسبانيا فلم يجدوا ملجأ يحميهم سوى ديار الإسلام والمسلمين فى المغرب الأقصى فنزحت إليه جموعهم وتغلغلوا فى مدنه وعاشوا بها فى تسامح عظيم قرونا طوالا أثروا فيها وتمولوا مالا كثيرا.. يشهد بهذا الحاخام الأكبر نفسه ج. هـ. هرزل حاخام الامبراطورية البريطانية فى كتابه (فى الفكر اليهودى) الذى نقله إلى العربية الدكتور الفريد

يقول الحاخام:

(لقد هاجمت، اليهود، جميع الأمم المسيحية، فأشبعتهم شتما، وامتهانا، واحتقارا وسلبا ونهبا، ولقد طردهم من انجلترا ادوارد الأول.. ومن فرنسا شارل السادس، فلم يجدوا ملجأ إلا الأندلس، **حيث أحاطهم أمراء الإسلام بعطف خاص**، يرجع غالبا إلى أن عقيدة كاثوليك إسبانيا، وهى عبارة عن إشراك مقنع. وفى ساعة نحس وشؤم اكتسح الصليب الهلال واحتل مكانه على قمة الحمراء، فهدم هذا الملاذ الوحيد، وخفت مصباح التسامح الدينى فى إسبانيا، إذ تقرر إخراج اليهود منها... غادروا البلاد كسيرى الفؤاد: مثقلى النفس ثكالى. لكنهم ما كادوا يبلغون السفن حتى وجدوها مربوطة عمداً فى الموانىء... هكذا انقضت المدة المقررة فأصبحوا عبيدا أرقاء... وأكرهوا على اعتناق المسيحية.. وابتهجت شبه جزيرة إسبانيا بهذه النتيجة، وأعلنت أن القساوسة انتصروا انتصارا كاملا. ص ٢١٨

وبعد هذا الذل انتقلوا إلى نعيم البلاد الإسلامية وتفيأوا ظلها بعد العذاب والتنكيل مما يجسم الفرق ولكن اليهود نسوا هذا كله وجحدوه فى خسة، وانقضوا على المسلمين فى فلسطين يبقرون البطون ويقتلون ويمثلون بقتلاهم حتى الأطفال المرضى حقنوهم بالإيدز!!

كم من الجرائم ارتكبوها فى حق الإسلام والمسلمين منذ بنى قريظة، إلى اليوم.. ولكن الله متم نوره ولو كرهوا.

(ولا تحسب الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) سورة ابراهيم ١٤ (الآية ٤٢).

ولعلنا نفيق ونعيد حساباتنا ونصلح أمرنا على قواعد من الدين والعلم والماضى والحاضر فقد أعطانا الله الكثير لو عرفنا استخدامه ووعينا قيمته.

وفى كتاب (عالمية الإسلام) آفاق وأعماق نستهدى بها.